

# الازدهار المعماري العربي في غربي القدس المحتلة\*

مراجعة بشير بركات\*

قديمة تلقى الضوء على العمران في تلك الفترة. ثم تحدث في الفصل الثاني عن سياسات الاحتلال البريطاني إزاء تخطيط المدينة وأنظمة البناء وتوسيع حدود البلدية لتضم الأحياء اليهودية غربي القدس.

أما الفصل الثالث فقد جاء في ٤٠ صفحة شكّلت جوهر الكتاب، حيث أورد فيه تفاصيل حول العمران العربي في ١٢ حياً في الشطر الغربي من المدينة، اختارها المؤلف بناء على ارتفاع نسبة الملاكين العرب فيها. وقد أرفق خرائط تفصيلية تبين أعداد ومساحات كافة الأراضي والمباني والطرق في تلك الأحياء التي كان يملكها مواطنون عرب، إضافة إلى جداول تبين أرقام الأحواض وأعداد القطع ومساحات البناء وغيرها.

ويعد عرض سريع لاحتلال الشطر الغربي من القدس عام ١٩٤٨ في الفصل الرابع، تحدث المؤلف عن مصير تلك الأملاك العربية التي خضعت للسيطرة الإسرائيلية في الفصل الخامس، وأورد نماذج مؤثرة لعائلات يهودية حلت في منازل عائلات عربية وتحدثت عن تهافت بعض الأثرياء نحو شراء عدد منها بأسعار باهظة في السنوات الأخيرة. وفي الفصل السادس والأخير عرض المؤلف صوراً لبعض المباني العامة، التي تميزت بها القدس قبل النكبة.



## ملاحظات/تصحيات لا بد منها

ترقيت خلال قراءتي للكتاب الوقوع على مادة يعكسها العنوان وواجهة المنزل الجميلة التي نشرها المؤلف على الغلاف الخارجي، إلا إنني لم أجد في الكتاب وصفاً أو تحليلاً كافياً للنواحي المعمارية الهندسية والفنية في المباني التي تطرق إليها المؤلف. ولو أنه استعان بمعماري مختص ليغطي هذا الجانب، ل زاد من قيمة كتابه، الذي ضم معلومات تهّم العديد من مؤرخي النكبة.

ومن جهة أخرى كان أجدر بالمؤلف أن يعرض مسوّد الكتاب على مؤرخ له دراية بتاريخ القدس فيراجعه ويتحقق من صحة بياناته قبل طبعه، فقد وقفت على بعض الأخطاء في هذا الكتاب، التي تجدر الإشارة إليها صيانة للتاريخ وحفاظاً على دقة المعلومات التي قد يستقيها باحثون منه ويسلمون بصحتها، وأعرض أهمها فيما يلي بحسب ورودها في الكتاب تسلسلياً:

- فقد قال المؤلف في الصفحة ٢٥: «مقام الشيخ جراح الذي بُني في القرن السابع عشر»، لكنني أعتقد أنه كان قائماً قبل ذلك بكثير، حيث تم ترميمه عام ١٥٥٧هـ/١٠٥٧م.

يُفهم من مقدمة الكتاب أن المؤلف استند في جمع البيانات على سجلات «مكتب تعريف وتخمين أملاك اللاجئين» الذي أنبثق عن «لجنة التوفيق» التابعة لهيئة الأمم المتحدة UNCCP والتي عُهد إليها بالبحث عن تسوية لحل النزاع بين العرب واليهود في فلسطين بعد النكبة، وذلك في الفترة ١٩٥٤-١٩٦٤. وذكر المؤلف أن موضوع الكتاب يدور حول الخسارة الفلسطينية المادية في الشطر الغربي من مدينة القدس المحتلة أي الأحياء والازدهار المعماري الذي سلب من أهله بعد تطهيرهم العرقي عام ١٩٤٨، وبيّن أنه يهدف إلى حصر وتعريف كمية ونوع تلك الممتلكات. تتناول الفصل الأول من الكتاب نبذة موجزة حول بداية انتشار العمران (وغالبية يهودي وأوروبي) خارج أسوار القدس وأواخر العهد العثماني والذي مهّدت له حملة إبراهيم باشا على بلاد الشام، ثم ترسخ بعد عودة الحكم العثماني إلى المنطقة، حيث عرض المؤلف عدة خرائط وصور

١ عدنان توفيق عبد الرازق. «دراسة مؤنفة بالبيانات والخرائط والصور. الازدهار المعماري العربي في غربي القدس المحتلة» (القدس: جمعية الدراسات العربية. ٢٠١٠)، ١١٤ صفحة.

\* مدير دار إسعاف النشاشيبي للثقافة والفنون والآداب.

- وقال في الصفحة ٢٥: «وهناك مقام الكراميه الذي عرف تقليديا كمزار عكاشة من الصحابة وقد دفن فيها اربعة من امراء الكرامية، مما أدى إلى تسمية المقام باسم العائلة». وقد احترت في «مقام الكرامية» و«أمراء الكرامية»، حيث لم أسمع بوجود أي أثر لهم في القدس، ولا بد أن المقصود هنا القيصرية، ولا أدري ما الذي دفع المؤلف إلى تحريفها إلى الكرامية. ويُشار إلى أن القبة القيصرية، بُنيت قبل عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وتقع في شارع شترواس شمال غربي القدس، وهي ترتفع فوق بناء مربع الشكل، ودُفن فيها عدد من شهداء القيصرية، وغيرهم في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. أما مقام عكاشة فقد استُحدث في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي على أرض موقوفة على القبة القيصرية.
- وقال أيضاً: «بيت الحاكم سلطان الناظر في وادي الجوز الذي بني في القرن السابع عشر»، ورغم أن المؤلف لم يذكر مصدر هذه المعلومة ولم يوثقها (كغيرها كثير من المعلومات)، فقد استقاها على الأرجح من كتاب أحياء أعيان القدس خارج أسوارها في القرن التاسع عشر، الذي أصدره البروفيسور شمعون لندمان، في تل أبيب عام ١٩٨٤، فحتى الآن لم أقع على أي دليل يثبت أن باني القصر كان عسكرياً أو حاكماً. هذا وقد كتب فوق صورة في الصفحة ٢٧: «صورة تاريخية لبيت الحاكم سلطان الناظر في وادي الجوز الذي بُني في القرن السابع عشر»، لكن تلك الصورة التي عرضها ليست «تاريخية» رغم أنها بالأبيض والأسود، حيث تظهر ألواح تسخين المياه الشمسية على سطح الدار المجاورة. وقد بنى الدار المذكورة (على حد علمي) داود البديرة المذكور في سجلات المحكمة الشرعية عام ١٩١٠، ولا تزال الدار قائمة في الشارع الرئيس في وادي الجوز. أما قصر الناظر، فكان موقعه في أرض القاع أسفل جبل الطور غربي الكلية الإبراهيمية، وقد هدمته السلطات الإسرائيلية قبل نحو عشرين عاماً.
- ومن الأخطاء أيضاً، ما كتب تعليقاً على صورة نشرها في الصفحة ٢٦: «صورة تاريخية لحي الشيخ جراح عام ١٨٩٨»، والواقع أنها صورة لمستشفى العيون في حي الشمامسة على طريق الخليل.
- وقال في وصف صورة أخرى في الصفحة ٣٢: «قوات الجنرال اللنبي تحتفل امام باب العامود»، والواقع أنه باب الخليل. ومن السهل التحقق من ذلك عبر زيارة سريعة للباينين، أو على الأقل عبر تصفح صور أبواب القدس في الشبكة العنكبوتية.
- وقال في شرح آخر لصورة في الصفحة ٣٥: «مظاهرات في القدس ضد مشروع التقسيم»، لكنها في الواقع صورة مشهورة التقطت خلال ثورة البراق، التي نشبت في آب/أغسطس ١٩٢٩. أما مشاريع التقسيم، فقد بدأ أولها عام ١٩٣٨، وهو مشروع بيل. وفي شرحه على صورة في الصفحة ٧٤ قال: «صورة تاريخية لحي جورة العناب»، وتظهر في الصورة بركة السلطان الواقعة جنوبي جورة العناب، ولكن الأغرب وصفه لصورة أسفلها: «صورة حديثة لبقايا بيت في حي جورة العناب والذي هدمت معظم أجزائه»، فهي في الحقيقة صورة لمدخل سوق الجاعونة الضخم، الذي شيده تاج الدين الجاعوني، في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، وما زال قائماً عامراً، حيث حوّلته السلطات الإسرائيلية بعد حرب عام ١٩٦٧ إلى قرية للفنون، يُقام فيها معرض سنوي.
- وقال المؤلف في الصفحة ١٠٤ عن بناية شميدت: «تم بناء هذه العمارة المواجهة لباب العمود عام ١٨٨٦ على يد الحجاج الألمان كنزل للحجاج سمي St. Poul's Hospice. وبعد عام ١٩٢٠ تحول هذا المبنى الفاخر إلى مدرسة للبنات. ومنذ ذلك الحين تعتبر مدرسه شميدت الألمانية من ارقى مدارس البنات في القدس». وأقول: إن جمعية الأراضي المقدسة، ومقرها كولون في ألمانيا، شيدت هذه البناية باسم نزل القديس بولس Paul في للحجاج المسيحيين الألمان عام ١٨٩٨، وليس عام ١٨٨٦. وبعد الحرب العالمية الأولى، احتلها الإنجليز واتخذوها مقراً للإدارة، ثم مقراً لقوات الطيران البريطاني، ثم قنصلية لبريطانيا حتى عام ١٩٥٠، حيث أعيد المبنى للألمان، ونقلوا إليه طاقم مدرسة شميدت، التي كانت تقع حتى حينه في موقع آخر غربي القدس.
- ورغم أن المؤلف وصف كتابه بأنه «دراسة موثقة»، فإن من الملاحظ أنه لم يلتزم بنهج التوثيق الأكاديمي المعترف، ولم يذكر مصادر كثير من المعلومات الواردة في الكتاب. وعندما أردتُ مطالعة الحواشي الخمسة عشر (فقط) التي أشار إليها، رجعت إلى مواقعها المفترضة في نهاية الكتاب، فوجدت في الصفحة ١١٤ ترويسة «المراجع» بدل «الحواشي»، فيبدو أن المؤلف دمج الحواشي بالمراجع. وقد ذكر في الحاشية/ المرجع رقم ٤ ما نصه: («دراسة جديدة عن مسيحيي القدس في ضوء الوثائق العثمانية: الحكم المصري حقق اهم قسطاً من الحرية والمساواة» تقرير صحفي لجريدة القدس ١٩ اغسطس ٢٠٠٩)، وربما يشاركني القارئ الكريم

- أن من الأجدد بدل الاستشهاد بتقرير وَرَدَ عن كتاب، كان قراءة الكتاب ذاته والاستشهاد به، فقد صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية بعنوان **نصاري القدس: دراسة في ضوء الوثائق العثمانية**، للدكتور أحمد حامد إبراهيم القضاة، ضمن سلسلة أطروحات الدكتوراه (٦٧). وفي الهامش/المرجع رقم ٨، ذكر المؤلف ما نصه: (مصطفى مراد الدباغ- فلسطين أرضنا، الفصل الثاني والثالث، جمعيه الخريجين، ١٩٧٥...)، وبحسب علمي، إن الدباغ صنّف كتاب **بلادنا فلسطين**، ولم أسمع بكتاب آخر له سماه **فلسطين أرضنا**.
  - كثر المؤلف دون مبرر، عدة عبارات في النص، رغم صغر حجمه، كحديثه عن الامتيازات التي منحها إبراهيم باشا للمسيحيين واليهود في الصفحة ١٣، ثم كررها في الصفحة ٢٢. و في الصفحة ٤٧، عند سرده لأسماء العائلات، التي شيدت منازل في أحياء القدس الغربية، كثر بعضها في الفقرة نفسها، ومنها «بركات».
  - ورغم أن غالبية الكتب الحديثة لا تخلو من أخطاء إنشائية أو ضعف في التراكييب اللغوية، إلا إن بعض ما ورد منها في كتاب على هذا المستوى جدير بالذكر. سنصحح بعضها، وسنترك البعض الآخر للقارئ، ومنها:
  - في الصفحة ٩: «أما بقي تحت السيطرة العربية».
  - في الصفحة ١٠: «الأبنية المميزة التي تظهر إلى الوجه الحضاري للقدس».
  - في الصفحة ١٣: «الأورروبيه، في أوربا بأعقاب الثورة الفرنسية»؛ «الأقليات الغير مسلمة» والصحيح غير المسلمة؛ «الغير إسلامية» والصحيح غير الإسلامية؛ «وجائت بشكل مزيد من الاصلاحات الدستورية ودفعه اخرى من التعديلات»، والصحيح وجاءت ودفعة؛ «كما أصدر إبراهيم باشا فرمان في القدس»، والصحيح فرمانا؛ «منحت الطوائف المسيحية واليهودية حقوق
  - متساوية»، والصحيح حقوقاً؛ «كذلك»، والصحيح كذلك.
  - في الصفحة ١٤: «وأشرف عليه الجمعية الفلسطينية»، والصحيح وأشرفت؛ «البروتستنتية»، والصحيح البروتستنتية.
  - وفي الصفحة ٢٢: «للبناء اليهودي» والصحيح اليهودي؛ «حوالي ٢٠ مر» والصحيح مرة؛ «روتشايلد»، والصحيح روتشيلد Rothschild.
  - وفي الصفحة ٢٩: «تم بناء ١٠٢ تجمع سكاني جديد»، والصحيح تجمعاً سكانياً جديداً؛ «التي بناها العرب وخاصة المسلمين»، والصحيح المسلمون.
  - وفي الصفحة ٣٤: «ستشير الأرقام والإحصاءات لاحقاً إلى انتشار من الحارات العربية»؛ «عكس نفسه على ادريخالية البناء وجودته»، والصحيح أنني لم أعر على معنى لكلمة ادريخالية في نطاق علمي الضئيل؛ «الذي أخذ بتزايد طابعه الوطني»، والصحيح يتزايد.
  - وفي الصفحة ٣٥: «بل شارك فيه اعداد كبيرة»، والصحيح شاركت.
  - وفي الصفحة ٣٦: «بدي واضحا»، والصحيح بدا؛ «كولونيالى تأمري»، والصحيح تأمري.
  - وفي الصفحة ٤١: «هندستها الداخلية الواسعة الذي احتوى على الصالونات»، والصحيح التي احتوت.
  - وفي الصفحة ٨٠: «كما شير جدول»، والصحيح يشير.
  - وفي الصفحة ٩١: «في احدى تصريحات القائم»، والصحيح أحد.
- أخيراً، أشير إلى أن المؤلف استخدم مصطلح «التطهير العرقي» عدة مرات في كتابه، والأجدد بنا استخدام «التهجير العرقي»، أو «الإبادة العرقية»، أو أي عبارة أخرى تناسب الحدث. وأشير إلى أن الكتاب كما افتقر في أوله إلى فهرس يسرد لنا فصوله ومواقعها، فإنه افتقر في آخره إلى خاتمة يلخص فيها المؤلف نتائج دراسته وتوصياته. والحمد لله رب العالمين.